المشرق

في السلطة الحاكمة

لحضرة المسيو يوسف العلم النائب الاسقفي

خطاب تلاه في غرفة القراءة المارونية في حفلة عيد الملوس اول ايلول سنة ١٩٠٢

لقد طالما بحث الائمة والفلاسفة من ابعد عهد عن مصدر السلطة الحاكمة وذهبوا في بحثهم مذاهب. فالبعض على انها من انتخاب الشعب والبعض الآخر على انها من مصدر اعلى وهو الاصح لا بل هو الصحيح. قال ارسطاطاليس: ان مصدرها الطبيعة يعني ان الاب لما تكاثرت اولاده واحفاده وبينهم من وشائج الدم قيود مكينة ومن اواصر القرابة روابط شديدة لم تدعهم يفكون متقيدين بحكم ولايته عليهم وتدبيره لهم اه. قال شيشرون: ان السلطة المدنية مثال السلطة الوالدية وانْ هي الا تمديدها او تاديبا فمصدرها عنها دون شكّ اه. وكما وُلدنا اولادًا غير مستقلين كذلك وُجدنا رعايا غير مستقلين وكما ان الولد يحتاج الى من يربيه ويحافظ عليه كذلك لدى وجوده في حضن الالفة يحتاج الى من يسوسه ويحميه وكما وجدنا في مهود الولادة متواخين ومتقاربين من غير محالفة بيننا ولا معاهدة كذلك وجدنا في محاجر الالفة خاضعين منقادين ونحن ملتفون ومؤتلفون والله هو الذي اوجد هاتين السلطتين الوالدية والالفية عنايةً منهُ بالخير العام وعلى هذا المبدأ بُنيت معاهد ولاية اولئك الذين كانوا في اوائل الاجيال يُدعون آباء وقد تبقّت لهم مآثر وآثار بين جميع الامم والشعوب ولم يكن وقتئذٍ لعوامل الانتخاب ناصبٌ في امر نصبهم ولا رافع في رفعة مناصبهم اي لم يكن لهم ضلع في أمر ولاية آبائهم. فولاية الفريقين هي من احكام الطبيعة اي من

ترتيب الخالق الذي برأ هذه الخلائق وغرس فيها من طبعها ما يتكفل بخير حياتها وراحتها

وزاد بعضهم هذا التعليل بياناً فقال: « ولما كان مصدر الالفة من شريعة الطبيعة وكانت السلطة من مقتضياتها الضرورية كان مصدر السلطة ايضاً من شريعة الطبيعة فليست اذن صادرة عن ارادة بشرية بل هي حق يحكم الشريعة الطبيعية ملازم لحالة الالفة فلا يتعلق برضى اصحاب الالفة المتألفين ولكن الطبيعة التي اوجدت الالفة هي اولت السلطة لانها الواسطة الضرورية لحفظ هيئة الالفة ونظامها. وبعبارة مختصرة نقول: ان الانسان ترتب للسعادة والوسيلة الى السعادة هي الالفة والوسيلة الى وعاية الالفة انما هي الولاية وما هذه الا السلطة الحاكمة » اه

يقول المعترضون ان الحاكم قد يقوم بانتخاب الشعب فولايته اذن من الشعب كانتخابه. الجواب ان النتيجة غير ناهضة لان هذه الولاية هي من حقوق المنصب لا من متعلقات الانتخاب الذي هو من متعلقات الشعب. على ان الولاية والانتخاب ليسا دائماً من مصدر واحد. وهذه الولاية الوالدية فانها ليست من رضى الاولاد ولا العيلة وان يكن الرجل لا يصير ابا عيلة الا برضى زوجته لكن ولايته الوالدية على عيلته ليست من رضاها بل هي من الطبيعة التي اولته هذه الولاية الضرورية لوظيفته. كذلك قل في من انتُخب من الشعب حاكماً عليهم فولايته لا تكون من الشعب بل هي من حقوق منصبه الذي يستلزم هذه الولاية حفظاً لنظام الالفة على انه لو كان الامر كما يزعمون وبئس ما يزعمون من ان مصدر الولاية هو من رضى الشعب وانتخاباته لم تكن هذه الولاية لتثبت في صاحبها الا مقدار ما يثبت الجمهور على فكر واحد وقول واحد

يكفي ما اوردنا من اقوال الفلاسفة فلنأت الآن الى الكتاب المقدس فان فيه البيّنات الساطعة والحجج القاطعة لاثبات مبحثنا هذا. قال الله تعالى: بي تتسلّك الملوك (امثال ٨: ١٥). وقال دانيال (ص ٢): ليكن اسم الله مباركاً من الازل الى الابد لان له الحكمة والجبروت وهو يغيّر الاوقات والازمنة ويعزل ملوكاً وينصب ملوكاً. وقال بولس الرسول رومية (١٣: ١) لتخضع كل نفس للسلطات السامية لان ليس سلطة الا من الله والسلطات الكائنة هي مرتبة من الله

وما احسن ما قاله القديس اغوسطينوس بهذا الخصوص: « نحن لا نقول بان لاحد غير الله حقاً لايلاء المملكة والملك. فهو في الآخرة يولي الابرار وحدهم ملك السماء. واما

هنا فانهُ يولي الملك من يشاء من الابرار كان او من الاشرار لكنهُ لا يشاء الّا العدل فالذي أعطى الحكم لماريوس هو عينه أعطاهُ لقيصر. والذي سلّط اغوسطوس هو الذي سلّط نيرون. والذي ولّى قسيسيانوس الكبير وابنهُ قسبسيانوس (طيطُس) الصغير الملكين الجديرين بكل محبّة هو الذي ولّى درميطيانوس الظالم. وحتى لا نأتي على ذكر الجميع نقول ان الذي ملّك قسطنطين هو الذي ملّك يوليانوس العاصي» اه. فتبيّن من ذلك جليًا ان الشعب لم يكن قطعًا مصدر السلطات السامية وان كان هو واسطة عقدها بانتخاباته احيانًا الّا ان حكمهُ في ذلك حكم الكرادلة في انتخاب البابا او حكم الرعايا في انتخاب اسقف او خوري فان انتخابهم لا يؤتي احدًا من هؤلاء السلطة المقارنة لدرجته ومنصبه. فالسلطات اذن مصدرها الله لا رضى الناس وهذا عن حكمة سامية من الله جلّ جلالهُ لانهُ راعى في ذلك تأييد جانب السلطات ورعاية حقوقها بحيث لا تمسّها اغراض الرعايا واهواؤها التي لا تستقرّ على حالٍ واحد

ولكن ما لنا وهذه البينات وعندنا الآية الكريمة وهي قول المعلّم الالهي سيّدنا يسوع المسيح: أعطوا قيصر ما هو لقيصر. وكان قولهُ هذا فتوى على سؤال طرحهُ عليهِ بعض اليهود الذين كانوا يتوهمون انهُ لا يلزمهم الطاعة للملوك من غير امّتهم فازال الرب منهم هذا الوهم ودفعهُ بثلث حجج: (اوّلها) بانهُ اراهم صورة الملك المرسومة على اصناف العملة المتداولة بين ايديهم اذ طلب منهم دينارًا وسألهم لمن هي الصورة المرسومة عليهِ فقالوا: لقيصر. فلو لم يكن قيصر هو الملك عليهم لما ساغ لهُ ان يرسم صورتهُ على النقود المتداولة في المملكة. الحجة (الثانية) بقوله «اعطوا قيصر ما هو لقيصر واعطوا الله ما هو لله» يريد بذلك تذكيرهم بان الطاعة واجبة لقيصر وغيرهِ من الملوك كما هي واجبة لله لان سلطة قيصر وامثال قيصر هي من الله فلا مناص لهم من عدم الطاعة والخضوع. الحجة (الثالثة) هي عمليتهُ فان اليهود المنوّه بهم اعلاه كانوا واقفين لهُ ولتلاميذه في المرصاد ليعرفوا ان كانوا ينقادون لاوامر قيصر ويقدّمون الاموال المرتبة لهُ على رعاياهُ. فالسيد المسيح قد عمل كما علّمهم في اعطاء قيصر ما هو لقيصر ولذلك أمر بطرس رسولهُ ان يذهب الى البحر وأمر حوتًا من حيتان البحر ان يوافيهُ باستير فاخذهُ بطرس ورجع فدفعهُ عن معلمهِ وعن نفسهِ لجباة الحكومة. فهذا تعليم المسيح وهذا عملهُ وعنهُ اخذ رسلهُ وعلماء الكنيسة ما قالوهُ بهذا الشان كما قدّمنا

وخلاصة المقال ان ديانتنا الالهيَّة قد اوجبت علينا للحكومة واجبات ثلثاً: طاعتها. وتأدية مطاليبها. ورعاية جانبها. وذلك لاوجه ثلثة: كون سلطتها من الله. كونها محامية لنا. كونها مصدر شرفنا وسعادتنا. وهذه كلها ضمَّنها الرسول في عبارته القائلة « فلتخضع كل نفس للسلطة اذ لا سلطة الَّا من الله » يريد انهُ لا يقدر احد من الناس ايًّا كان ان يعتذر عن عدم الطاعة للحكومة لانهُ لا يقدر ان يعتذر عن عدم الطاعة لله جلَّ جلالهُ لان السلطة المؤتاة للحكومة هي من الله. ومن ثمَّة لا يكون الخضوع للانسان بل لله فلا يحطُّ خضوعه هذا بشيء من شرفهِ ولا ينقص من حريتهِ اذ لا يكون خاضعاً لانسان مثلهِ لكن لسلطة الله المعطاة لذاك الانسان. وزاد قوله هذا بان قال: « ومن يقاوم السلطان فقد قاوم الله » اي فليكن الذي لا يطيع السلطان على حذر لانهُ ان نجا من بأس غضب السلطان لا ينجو من بأس غضب الله. ليت شعري لو اعتبر ذلك المقاومون لكفاهم زجرًا عن غرورهم وردعاً عن شرورهم لان حظهم انما يكون مع اولئك الذين تمردوا من الملائكة على العزة الصمدانية فاهبطتهم من الاعالي العلويَّة وزجَّتهم في المواقيد الابديَّة التي اعدتها ايضاً للمتمردين نظيرهم على سلطتها في البشر

الواجب الثاني علينا للحكومة تأدية مطاليبها من اموال اعناق وارزاق وما اشبه. فالحكومة تحافظ على حياتنا واموالنا وترعى العدل والحقّ بيننا والملك هو حارس المملكة وحفيظها وملجأها وحماها وقائدها ومديرها فان اصابها من آفات الدهر مصاب صدَّهُ وان طرقها من اعاديها طارق ردَّهُ. ومن لنا في الملمَّات غير الحكومات وهل لنا نصير من مظالم الايام سواها وهل تعرف الرعايا غيرها امًّا واباها. وهذه حوادث الزلازل وهذه مهالك الاوبئة كالطاعون والهواء الاصفر وهذه ضربات الجوع والجدب مَنْ رأينا في دَرْئها وانقاذ الناس من مخاليبها سوى الحكومات. فمن ثم يكون ما يترتب لها علينا من المطاليب ديناً واجب الوفاء. وفرضاً لازم القضاء. يلزم ان نؤدّيه عن طيبة نفس مع الشكر. وبه قال الرسول « ولهذا تؤدّون الجزية »

اما الواجب الثالث علينا للحكومة فهو رعاية جانبها اي بذل كل ما لنا وعندنا في سبيل الدولة ورعاية شأنها والذبّ عن حوضها كأننا كلّنا جنود مجنَّدة لخدمتها وان تكون خدمتنا لها صحيحة عن محبَّة واعتبار لا بالظاهر فقط بل بالباطن ايضاً وبه قال الرسول: « ولذلك يلزمنا ان نخضع ليس من اجل الخوف فقط بل من اجل الضمير » وبنا لنا

بمقابلة خدماتنا هذه من جانب الحكومة الشرف والرفعة بما تنعم علينا من المناصب والوسامات والرتب فهذه مصادر شرفنا ورفعة شأننا وحقها ان تكون مجازاة لاعمالنا التي هي تستحق هذا الالتفات وعند ذلك يكون الشرف الصحيح

انهُ ليظهر لي من ملامح وجوهكم ايها الادباء الكرام انكم قد استحسنتم ما جئنا بهِ في هذه المجالة لجهة السلطة المدنية وما لها من المقدرة والمكانة والرفعة وكل ذلك من المولى جلَّ جلالهُ فانهُ هو الذي قد بنى معاليها على دعائم الشريعة الطبيعيَّة الازلية وجعل مصدرها من جانب عرشهِ السامي لانهُ قد اوجد الناس للالفة ونظام الالفة لا يقوم بدون سلطة. فمن ثمَّة رأى بحكمتهِ أن تكون هذه السلطة من نفس سلطته معزَّزة مؤيَّدة لا يستطيع البشر سبيلًا الى مسها من جهة ولذلك قال: «بي تتسلك الملوك» و «لا سلطة الَّا من الله»

الَّا انهُ يبدو لنا أيُّها الاحبَّة هنا اعتباران هما من الاهميَّة على جانب: (الاوَّل) يلاحظ الديانة وشأنها في حق السلطة. (والثاني) ينظر في ماجريات الكبرياء البشريَّة في جانب السلطة. فالديانة قد عظَّمت السلطة كثيرًا ورفعت قدرها ورعت جانبها وعزَّزتهُ بكل ما يمكن. وبعكس ذلك الكبرياء البشريَّة فانهُ يثقل عليها اداء الطاعة والخضوع ولا تحبُّ الَّا الاستقلال والانتقاد ولا تنقاد للسلطة الَّا رغمًا وعنوةً. ولنخُض في سر هذين الاعتبارين فنقول: ان الديانة ترعى جانب السلطة لانَّها شقيقتها وكلتاهما اشتقَّتا من مصدر واحد لكن الديانة وُجدت في هذا الوجود قبلُ لانَّها وُجدت حين وُجد آدم الانسان الاوَّل فلم يكن سواهُ يعرف الله ويحبهُ ويكرمهُ. ثم وُجدت حواء فتكوَّنت الالفة معها ولكن لم يكن حينئذٍ مجالٌ لمجالي السلطة ثم ولد آدم وحوَّاء اولادًا فازهرت الالفة ومعها برزت السلطة وكانت هذه السلطة اوَّلًا متضوية في ظلال الابوَّة اذ كانت العيلة صغيرة وهي لمَّا تكاثرت وصارت قبيلة بل قبائل صارت تلك الابوَّة حكومةً والسلطة الوالديَّة او الرئيسيَّة صارت ملكية حاكمة كما قدَّمنا. ولمَّا كان الله هو موضوع الديانة ومصدرها ومرجعها الوحيد كانت الديانة هي المحافظة اتمَّ المحافظة على السلطة التي هي من الله وكلتاهما اي الديانة والسلطة هما من مبدأ واحد وهو الله وغايتهما واحدة وهي اسعاد البشر بالسعادة التي ترتبوا لها من الله. فهما بمنزلة يدين للجسم الادبي الانساني تتعاونان وتتقاسان في خدمتهِ ورعاية مصلحتهِ ولمَّا كان الانسان مركَّبًا من

نفس وجسد ومرتبًا للالفة من اصل طبعه وكان مصدره الله وغايته الله تحتم ان تكون فيه الديانة والسلطة رعاية لحقوق المولى وحقوق العباد فلم يوجد شعب من دون ديانة ولا وجدت امة من غير سلطة . وعليه فالديانة قد امرت الناس بقضاء الحقوق التي عليهم للسلطة من اداء الطاعة ومال الاعناق والارزاق والاحترام لشأنها واجتناب الشر وتهديد اهل الثورة بعقوبة الله وعمل الصلاح فهذه كلها ذكرها الرسول في عبارته مفصلة

فيا حبذا لو ائتمر الناس باوامر الديانة هذه فانهم لو فعلوا لصار الاستغناء عن الاستعانة بالقوات لاستحصال الاموال الاميرية ومنع الشرور واستتباب السكينة وعمل الصلاح وتوطيد اركان المهابة والطاعة . ولما كان حب الكبرياء يحمل الانسان على عدم الانقياد والخضوع لاوامر من كان نظيره من الناس أوضحت له الديانة ان خضوعه لصاحب السلطة انما هو خضوع حقيقي للمولى لان السلطة هي من الله وان مقاومته للسلطان انما هي مقاومته لله وانه اذا نجا هنا من بطش السلطان لا ينجو هناك من بطش الله الديان . فحماة الديانة هذه عن الملوك هي اعظم حماة واين صولة عساكرهم من صولة رب السماوات والارض الذي بصوته يزلزل الارض ويدك الجبال ويقض الصواعق وهو الذي قال كوني فكانت وهو الذي يطويها كالرداء لو شاء

ومن ثمة رأينا في كل الاجيال اصحاب السلطة العالية العاقلين المتدينين يحافظون كل المحافظة على الديانة ورعاية حقوقها في رعاياهم علما منهم بان الديانة متى كانت راسخة القدم في قلوب الناس ساقتهم الى الطاعة وحب السلامة واجتناب المعاصي وان لها قوة وسطوة على النفوس في الجهر والسر والداخل والخارج لا تعادلها القوات البشرية . هذا فضلا عن كون الانسان اذا لم يكن متشبثا باذيال الديانة لم يكن عضوا صالحا للالفة ولا عبدا اميناً لمولاه ولا رجلا نافعا للسلكة واي فضيلة صحيحة توجد في من لا يعرف الديانة او بالحري لا يعرف الله

وها ان جميع الفلاسفة والائمة المشترعين قد اجمعوا على ان عماد الحكومات واركان شرائعها انما هو الديانة . قال افلاطون : ان الاستعانة بالله قبل كل شيء لهي من اول الواجبات اه . وارسطاطاليس رسم في شرائعه العبادة الالهية وهكذا رأى باقي الفلاسفة . وقد كان الرومانيون شديدي التمسك بعباداتهم ومثلهم باقي الامم والممالك كما نقرأ في تواريخ الاولين وذلك كما ابان المعلم روسو لانهم كانوا متفقين على ان الحكومة

من دون ديانة لا تلبث ان يُخلّ عرشها ويذلّ بطشها ولا تعود الرعايا تهاب سلطةً ولا ولاية. قال افلاطون ولقد اصاب: « ان اوّل شيء يلزم الحكومة ان توجّه نظرها اليه انما هو رعاية جانب الديانة الصحيحة لان رجال الدولة لا تهذّبهم الّا هذه الديانة اذ ان عدم معرفة الله لاعظم الآفات على كل حكومة ومن يسعى بابعاد الديانة فقد سعى بتقويض اركان الالفة » اه

قال المعلّم ترتوليانوس: « انّ من لا يعتقد بوجود الله يسهل عليه مخالفة الشريعة لافتكاره بانهُ يقدر ان ينجو من عقوبتها اما بالفرار او بتحمّل جزاء خفيف او قصير. اما نحن الذين نؤمن بان الله يرى اعمالنا ونخاف ان يتعقّبنا عليها بعذاب دائم فنرى ان تمسّكنا بعمل المبرّات والحسنات خيرٌ لنا وازكى ومن ترى يظنّ انهُ لولا الديانة كان القويّ لا يتلفّف الضعيف والخبيث الداهية لا يقتنص الأمي الساذج بشرك دهائه » اه.

قال القديس يوستينوس للامبراطور « انما نحن الوسيلة لتثبيتك ظلّ الأمن آمنًا مرتاحًا لاننا نعلم انهُ لا تخفى على الله خافية من الناس اشرارًا كانوا ام ابرارًا وان كلًّا منهم سوف يجازى بحسب اعماله حياةً ابديّة او عذابات ابديّة. على انهُ لو كان الجميع يعلمون هذه الامور لما عاد واحد منهم يتجرّأ على اتباع الرذيلة وترك الفضيلة لعلمه انهُ سيزجّ في المواقيد الدائمة. ولكن اولئك الذين يتخطّون شرائعك يظنون انهُ لا يعوزهم الّا التخفي عن مراقبة جنودك ليتملّصوا من العقوبات التي رتبتها عظمتك على الاشرار الاشقياء » اه

وقد تبقّى علينا ان نلمع في الختام الى فرض مهمّ توجبهُ علينا ديانتنا المقدّسة في حقّ السلطة الحاكمة وهو تقديم الصلوات والادعية في معابدنا بصورة حافلة كما اوعز بولس الرسول الى تلميذه تيموثاوس حيث قال (١ تيم ٢ : ١—٣): « فمن ثمّ أسألك قبل كل شيء ان تُقدّم لله طلبة وتوسّلًا . . . من اجل الملوك والعظماء ليحلّوا محلًّا هاديًا بجميع تقوى الله . . . فان هذا حسن ومقبول لدى الله مخلّصنا ». فامتثالًا لاوامر الرسول نُقيم نحن معاشر النصارى الراتعين في ظل الاريكة العثمانيّة ايّدها الله الابتهالات الحارّة والادعية الخيريّة لاجل مليكنا وخاقاننا الاعظم المالك سعيدًا ولاجل دولته العليّة المرعيّة بعين العناية الصمدانيّة وهذه التوسّلات نرفعها في كل آن وقد رفعناها خصوصًا في مثل هذا النهار الذي هو عيد جلوس شوكته المأنوس وقلنا في ختام دعائنا: « اللهم هذا دعاؤنا رفعناهُ اليك كما علّمتنا ولا شكّ انهُ يكون لديك مستحسنًا ومقبولًا كما وعدتنا ». ولمّا كان

القاء هذا الخطاب بمناسبة هذا العيد الجليل ومن جملة مجالي الاحتفال به رأينا ان نقدمهُ مطبوعاً في هذه المجلّة لمكارم عطوفة ملجأ ولايتنا الرشيد مع ما تقدّم رقمنا به من فروض التهاني والابتهال وتجالي الاجلال والاحتفال بالعيد المجيد الميمون المقرون بصُنوف السعد والاقبال

(المشرق) انّنا نثني على راقم هذه الاسطر حضرة المسيو يوسف العلم وعلى خطابهِ السجديّ فانَّ الادلّة الدقليّة والنقليّة التي اثبت فيها اصل السلطة الملاكة وحقوقها وما للدين في عضدها من اليد الطولى لجدير باعتبار كلّ عاقل يحبّ الألفة ويريد بقاءها سالمةً من آفات الفوضى وعواقب الفتن الوخيمة في ظلّ الرؤساء الشرعيين ايّد الله سلطانهم وارشدهم الى كلّ ما فيهِ خير الرعايا وصالح الدولة

تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

٥ الامم البائدة في لبنان

٣ الايطوريون

سبق لنا القول (ص ١٠٧) انَّ الرومان لمَّا فتحوا الشام وجدوا لبنان في حوزة قوم من الغزاة كانوا عشّشوا في جبالهِ الساحليَّة الممتدَّة من طرابلس الى جبيل. وهم الايطوريون

وليس هؤلاء القوم من لبنان وانّما اصلهم من اللجا ومن جبال حوران وكانوا ذوي بأس وطمع فتحاملوا على الجبل الشرقي واتّخذوا خيراتهِ كطعمةٍ ثمَّ تشوّفوا الى لبنان فاستولوا عليهِ قبل زمن الدولة الرومانيَّة بقليل

والايطوريون احدى القبائل العربيَّة او الاراميَّة (١ التي كانت مذ ذاك العهد مدَّت ظلّ سطوتها على البلاد الواقعة في جنوبيّ دمشق وشرقيّها. وكان شيخ القبيلة اوانئذٍ يدعى بطليموس ابن منّايوس من اعظم اهل سوريَّة ثروة وقدراً. وكان يحكم على بلد الايطوريين الاصليّ (٢ ويتولّى الجبل الشرقيّ وجهات البقاع الشماليَّة مع مدينتي بعلبك

١) كل الاعلام الايطوريَّة الاصل الواردة في الكتابات القديمة اما عربيَّة واما آراميَّة راجع مجموع الكتابات اللاتينيَّة (CIL., III, n° 4171 etc.) راجع ايضاً تفاصيل اخبار الايطوريين في معجم الكتاب المقدس (Vigouroux: *Dict. de la Bible*, art. *Iturée*) ٢) ايطوريَّة الاصليَّة توافق بلاد اللجا وحيدور الحاليَّة. وقد ورد ذكر ايطوريَّة في انجيل لوقا (٣: ١)